آفاق الحضارة الاسلامية، أكاديمية العلوم الانسانية و الدراسات الثقافية
السنة الرابعة عشرة، العدد الثانی، الخريف و الشتاء ١٤٣٣ هـ.ق، صص ١٠٧-١٢٠

الأسلوب المسجوع فی الآيات القرآنية

حسام علی محمود*
أعظم بيكدلی**

الملخص

يمثل القرآن الكريم أساساً لكل مظاهر الحياة العقلية والبشرية المتطورة الناشدة للغايات السامية والقويمة، ذات الأهداف النبيلة الساعية إلی منح الفرص المتساوية لزهو الشعوب واستقلالها فی كل المجالات دائماً وأبداً. ولذلک فقد كانت آياته المباركة بمثابة براهين خالدة عظيمة أولت تصوير تلک المظاهر من خلالها بأبلغ الكلمات والعبارات وبأعمق المعانی والدلالات التی تسطرت تباعاً علی صدرسيد الكائنات محمد عليه وآله أفضل الصلاة والسلام.

ومن هنا صارت آيات القرآن الكريم موضع اهتمام الأدباء كما العلماء، فی إظهار رقة وجمالية الأساليب القرآنية التی كسبت القلوب وأجبرتها علی الاستماع والإنصات، والخشوع عند ترديدها فيما بعد. ما يعنی أن أسلوب القرآن الكريم البلاغی، كان له الأثر العميق فی إرساء دور الآيات القرآنية فی التبليغ والدعوة، جراء الأسلوب المعجز الذی تميزت به هذه الآيات والذی نطلق عليه «السجع».

لذا، سنحاول فی هذه المقالة أن نقدم دراسة وافية حول هذا الأسلوب الأدبی والجمالی الذی تميز به القرآن.

الكلمات الرئيسة: القرآن الكريم، السجع، السجع القرآنی، أسباب السجع.

المقدمة

لا يخفی علی كل طالب أو باحث أو كل عالم أو متعلم، بأن للقرآن الكريم فضلاً واضحاً

* باحث أكاديمی و كاتب فی الاذاعة و التلفزيون لجمهورية ايران الاسلامية aboahmad_61@yahoo.com
** طالبة فی مرحلة الدكتوراه بجامعة طهران azam.bigdeli@yahoo.com
تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٦/١٠، تاريخ القبول: ١٣٩٠/٧/١

من معانيه الفياضة وألفاظه المتطورة وتراكيبه الجديدة وأساليبه العالية التی أفاض بها على اللغة العربية.

لقد ابتعد القرآن عن شوائب ظاهر التعابير والألفاظ والتراكيب، بل ما أضفاه على أنيق معانيها، جعلها تنطق ببلاغة أكثر، جرت بعد ذلک على ألسنة البشر، وهی تتمثل فی أمثالهم وحكمهم وخطبهم، وما حملته ميزاتها العديدة التی أفرزها لها القرآن الكريم ما أفرزه، من الفنون البديعية، ومنها السجع.

ولهذا بات السجع عنصراً من عناصر فن القول الأدبی ولوناً من ألوان التعبير اللغوی الذی عُنی به الكثيرون من القدماء والمحدثين، فأفردوا له كتباً وبحوثاً عكست ذلک التنوع العجيب فی إيقاعات القرآن الفنية التی بلغت فيه من الحسن والفصاحة أعلى مراتبها ومن أساليبها وفنونها أرقی سلالمها. فلا غرو إذ أذعنا الی أنّ القرآن الكريم قد أطلق للسجع حقيقة جديدة أمسی لها شأن فی اللغة العربية وألوانها الأدبية.

السجع

السجع لغةً

ورد عنه فی لسان العرب

سَجَعَ يَسْجَعُ سَجعاً: استوى واستقام، وأشبه بعضه بعضاً. والسجع: الكلام المقفى، والجمع أسجاعٌ وأساجيع. وسَجَّعَ تسجيعاً: تكلّم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن (ابن منظور، ٢٠٠٤: مادة سجع). وفی الجمهرة نجد: السجع: هو موالاة الكلام على رویّ واحد. وسجعت الحمامة إذا رددت صوتها (ابن دريد: ج ٢٢) على وجه واحد، وكذلک سجعت الناقة فی حنينها، ومدّت حنينها على جهة واحدة.

السجع دلالةً

أن تتواطأ فاصلتان فی النثر على حرفٍ واحدٍ أی انتهاء الجملتين بكلمتين متشابهتين فی أواخرهما (أبو حاقة، ١٩٩٦: ١٩٦-١٩٨)، معناه هو: توافق الفاصلتين فی الحرف الاخير من الكلام المنثور[١]، وهو يعدّ فی النثر كالقافية فی الشعر (الزوبعی، ١٩٩٦: البيان والبديع «لطلبة قسم اللغة العربية»، ١٥٢).

حيث يقول ابن سنان فيه: «كما أن الشعر يحسن بتساوی قوافيه كذلک النثر يحسن بتماثل

الحروف فى فصوله ويقول فى موضع آخر: «فأما القوافى فإنها تجرى مجرى السجع (الخفاجى، ١٩٥٣: ١٦٤ – ١٧١).

ولقد اختلف العلماء من البلاغيين واللغويين والمفسرين وغيرهم فى تسمية أواخر الآيات سجعاً أو فاصلة[٢]؛ فكلا المصطلحين مغرقان فى القدم فعرفهما العلماء وتناولوهما فى ثنايا مؤلفاتهم. فالبعض منهم مالَ الى تسمية هذه الظاهرة الأدبية «سجعاً» (عبود، ١٩٩٢: ١٢٥) نظراً الى رواج تسميته عند العرب فى مجاهل صحراء الجزيرة العربية. إذ كانوا يكشفون عن دفين ما كان فيها من نفثات الصدور، وشوارد الأفكار. فإنهم فى تلك الحقبة البعيدة من الزمن كانوا يعبّرون عن خلجات أنفسهم بنثرهم فى خطبهم ومواعظهم وحكمهم وأمثالهم (طهرانى، ١٣٨٠: ٣١)، فامتدت هذه التسمية امتداداً واسعاً الى أن وصل الأمر الى العلماء، فاتخذها البعض منهم فى العصور اللاحقة وأطلقوا تسمية (السجع) فى بحوثهم القرآنية.

وأما البعض الآخر من العلماء، فقد آثروا استعمال مصطلح «الفاصلة» على مصطلح «السجع»، استناداً الى الآية القرآنية «كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُه» (فصلت: ٣)[٣] وحاولوا الابتعاد عن استعمال «الأسجاع» لأسباب منها؛ أنهم كانوا يرون أن أصل السجع من «سَجَعَ الطيرُ» فيشرِّفون ويعظمون القرآن الكريم أن يُستعار لشيءٍ فيه لفظ هو أصل فى صوت الطائر (الزركشى، ١٩٩٠: ١٥٠).

ثمّ إنهم كانوا يعتقدون أن السجع حمل عبر تاريخه الطويل ظلالاً من المعانى وسمته هى التكلف والنفرة، فهذه السمة كانت سمة مميزة لحديث الكهان قبل الاسلام ولأجل تشريف القرآن الكريم عن مشاركة غيره من الكلام؛ كانوا يتجنبون عن استعماله (أحمد نحلة، ١٩٨٩: ١٧٥، ١٧٦).

أنواع السجع

لقد ظهرت تقسيمات مختلفة عن السجع وأطواره لدى العلماء، فاختلفوا فيه. فقسّم فريق منهم السجع من حيث الرويّ أو الوزن، وبعضهم الآخر قسّمه من حيث الطول والقصر للفقرة أو مقدار الفقرة. ويمكن عرض هذه التقسيمات بحسب الزوايا السالفة الى أنواع متعددة.

فمن حيث توافر الوزن وعدمه، ومن حيث اجتماع الوزن مع عنصر آخر، أو انفراده، ينقسم إلى أربعة أقسام أو أكثر؛ منها:

١. السجع «المطرّف»[٤]: وهو أن تتفق الفاصلتان فى حروف السجع (الرويّ) دون الوزن. كقوله تعالى: «ما لكم لا تَرْجُونَ لله وقاراً وَقَدْ خَلَقكُمْ أطواراً» (نوح: ١٣، ١٤).

٢. السجع «المتوازى»: هو اتفاق الفاصلتين (الجملتين) وزناً وتقفية، إذ تتفق اللفظة الأخيرة

من الفقرة مع نظيرتها فى الوزن والروى واشترط بعض العلماء ألاّ يقابل ما فى الفقرة الأولى لما فى الثانية فى الوزن والتقفية (السيوطى، ١٣٧٠: ٢/ ١٠٤)، نحو «أعوذ بک من الفقر إلاّ إليک ومن الذّل إلاّ لک» أو كقوله تعالى «فيها سُررٌ مرفوعةٌ وأكوابٌ موضُوعةٌ» (الغاشية: ١٣–١٤).

٣. السجع «المرّصع»: هو ما تتفق فيه ألفاظ الجملتين وزناً وتقفية ويكون ما فى الأولى مقابلاً لما فى الثانية، نحو: «إنّ الأبرارَ لَفى نعيم، وإنَّ الفجّارَ لفى جحيم» (الانفطار: ١٣–١٤)، ومثله أيضاً قوله تعالى: «إنّ إلينا إيابهم، ثمّ إنّ عَلَينا حسابَهُم» (الغاشية: ٢٥–٢٦).

٤. السجع «المتوازن»: هو أن تتفق الجملتان فى الوزن دون التقفية (السيوطى، ١٣٧٠: ٢/ ١٠٤)؛ نحو قوله تعالى: «ونَمارقُ مصفوفةٌ وزَرابىُ مبثوثةٌ» (الغاشية: ١٥–١٦).

فريق آخر من العلماء ـ كما أُشيرَ ـ يقسمونه من حيث الطول والقصر الى ثلاثة أقسام:

ـ قصير موجز؛

ـ متوسط العجز؛

ـ طويل مفصح مبين للمعنى مبرز (الجوزية، ١٣٢٧: ٢٢٧).

السجع القصير الموجز: هو ماتكون فيه كل فقرة مسجوعة مؤلفة من ألفاظ قليلة كقوله تعالى: «ألم» (البقرة: ١؛ آل عمران: ١؛ العنكبوت: ١؛ السجدة: ١؛ لقمان: ١)، «حم» (المؤمن: ١؛ فصلت: ١؛ الزخرف: ١؛ الدخان: ١؛ الأحقاف: ١)، «طسم» (الشعراء: ١؛ القصص: ١)، فإن أقصر الفقرات فى السجع ما يكون من لفظتين وأطولها مايكون من عشر لفظات، كقوله تعالى:

«والشمسِ وضُحاها، والقمرِ إذا تلاها» (الشمس: ١–٢).

وما بين هذين متوسط (الجندى، ١٩٥١: ٢/ ١٨٣) كقوله تعالى: «والنَجْمِ إذا هَوَى، ما ضَلّ صاحِبُكم وما غَوى، وما ينطقُ عنِ الهوى، إنْ هوَ إلاّ وحىٌ يُوْحى» (النجم: ١–٤). وأيضاً قوله تعالى: «وإنْ يَرَوْا آيةً يُعرِضُوا ويَقُولوا: سِحْرٌ مُستمرٌ، وكذَّبوا واتبعوا أهواءَهم، وكلُّ أمرٍ مُسْتقِرٌّ» (القمر: ٢–٣).

السجع الطويل المفصح: وهو ما تطول الألفاظ فيه، وتتفاوت درجاته فى الطول، وأقصر الطوال ما يكون من إحدى عشرة لفظة، وأطولها غير مضبوط (الجندى، ١٩٥١: ٢/ ١٨٣).

وكلما طالت الفقر زاد بيانها وإفصاحها، وقد وقع فى الفقر المطولة ما هو من عشرين لفظة فما حولها. كقوله تعالى: «إذ يُريكَهُمُ الله فى منامِكَ قليلاً ولو أراكَهُم كثيراً لَفَشلْتُم ولتنازَعتُم فى الأمرِ ولكنَّ اللهَ سَلّمَ إنّه عليمٌ بذات الصدور، وإذ يُريكموهمْ إذ التَقَيتُمْ فى أعيُنِكُم قليلاً ويُقلِّلكم فى أعْيُنِهِمْ ليَقضىَ اللهُ أمراً كان مفعولاً، وإلى اللهِ تُرجَعُ الأمورُ» (الانفال: ٤٣–٤٤).

ومن ذلک أيضاً قوله تعالى:

«ولَئن أذقنا الانسان مِنّا رحمةً ثمّ نَزَعناها منه إنه ليَئوسٌ كفور، ولَئن أذقناهُ نعماءَ بعدَ ضرّاء مَسّته ليقولَنّ ذَهَب السيئاتُ عنيّ إنّه لَفَرحٌ فخورٌ» (هود: ٩- ١٠).

ويتكلم السيد قطب فى كتابه «التصوير الفنى فى القرآن» عن هذه الأنواع من السجع مشيراً الى أنها تتفاوت «الاسجاع» فى الطول والقصر والتوسط بحسب الأجواء والسور (سيد قطب، ١٩٥٦: ٩١-٩٣-٩٤) وبحسب السياق فى السورة الواحدة، ثم يتنبه الى ملاحظة طريفة وهى: أن الفواصل تقتصر غالباً فى السور القصار، وأنها تتوسط أو تطول فى السور المتوسطة والطوال (المصدر نفسه: ٩٠-٩١).

يبقى تقسيم آخر للسجع وهو انقسامه بحسب مقادير الفقرات الى:

١. أن تكون الفقرات متساوية فى عدد الكلمات كما فى قوله تعالى: «فأما اليتيمَ فلا تقهَرْ، وأما السائلَ فلا تنهَرْ» (الضحى: ٩- ١٠) وأيضاً قوله: «فى سدرٍ مخضودٍ، وطلحٍ منضودٍ، وظلٍ ممدودٍ» (الواقعة: ٢٨ - ٣٠).

٢. أن تكون الفقرات مختلفة فتختلف طولاً وقصراً، فالاختلاف قد يكون بين فقرتين، أو أكثر (الحسناوى، ١٩٨٦: ١٥٤-١٥٥). مثال ذلک قوله تعالى: «بَلْ كذّبوا بالساعة واعتَدْنا لِمنْ كذّبَ بالساعة سعيراً، إذا رأتْهُمْ من مكانٍ بعيدٍ سَمِعوا لَها تغيظاً وزفيراً، وإذ أُلقوا منها مَكاناً ضيقاً مُقرّنين دَعَوا هنالک ثبوراً» (الفرقان: ١٢-١٣).[٥] وأيضاً قوله تعالى: «أفَلا يَنظرون الى الإبلِ كيفَ خُلِقَتْ، والى السماءِ كيف رُفِعتْ» (الغاشية: ١٧-١٨).[٦] وقوله تعالى أيضاً: «خُذوه، فغُلّوه، ثمّ الجحيمَ صَلّوه» (الحاقة: ٣٠- ٣١).[٧]

شروط السجع

شأن السجع كشأن أساليب التعبير الأخرى فى اللغة، ففيه الجيد والردىء، وفيه الحسن والأحسن والجميل والأجمل (الزوبعى، ١٩٩٦: ١٥٧). وتوافر شروط السجع فى الكلام تكون ضرورية لمعرفة السجع نفسه إن كان قد طغى على ظاهر الكلام أم لا، ومن هذه الشروط:

أنّ الأصل فى السجع إنما هو الاعتدال فى مقاطع الكلام. والاعتدال مطلوب فى جميع الأشياء والنفس تميلُ إليه بالطبع ويستسيغه السمع. ومع هذا فليس الوقوف فى السجع عند الاعتدال فقط، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد، فلو كان ذلک هو المراد من السجع لكان كل أديب سجّاعاً (عباس، ١٩٩٨: ٣٠٦).

أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة رنانة رقيقة عذبة، لا ركيكة ولا متكلفة، بعيدة عن الغثاثة والبرودة، فلا ينبغى للسامع أن يصرف همه الى الأسجاع والتطابق ويهمل الألفاظ وحلاوتها.

أن تكون الألفاظ فيه تابعة للمعانى وليست المعانى تابعة لها (عباس، ١٩٩٨: ٣٠٣). فإذا اتبع المعنى فيه اللفظ فإنه من السجع الممقوت والردىء، حيث لا يقع إلا فى كلام ضعفاء المتكلمين (البلاغة العربية: ٣٠٣).

أن تكون كل فقرة من فقرات السجع دالة على معنى غير معنى الفقرة الأخرى (سلامه، ١٩٨٧: ٥٠٦)، وإلا كان تكراراً، وترادفاً للمعنى، وتطويلاً يبعد السجع عن مواطن البلاغة، وعن الهدف الذى أُريدَ منه (البلاغة العربية: ٣٣٦).

أن الأسجاع موضوعة على ان تكون ساكنة الإعجاز، موقوفاً عليها لأن الغرض منها المجانسة والمزاوجة بين الفقرات، ولا يتم ذلک إلا بالوقوف. فلو ظهر الإعراب لفات ذلک الغرض.مثلاً قول: «ما أبعَدَ ما فاتَ، وما أقربَ ماهو آتٍ» (سلامه، ١٩٨٧: ٥٠٦). للزم أن تكون التاء الأولى مفتوحة، والثانية مكسورة منوّنة، فيفوت غرض الاتفاق[٨]. كقوله تعالى: ومالَهُم من دونه من والٍ ...، ويُنشئُ السحابَ **الثقالَ** (الرعد: ١١–١٢). كذلک قوله تعالى: «دُحوراً ولهم عذابٌ **واصبٌ**، إلاّ مَنْ خَطِف الخطفةَ فأتبَعهُ شهابٌ **ثاقبٌ**، فاسْتَفْتِهِم أهم أشدّ خلقاً أم منْ خلقنا إنّا خلقناهم من طينٍ **لازب**» (الصافات: ٩–١١).

فلّما استوفى السجع هذه الشروط كان حلية ظاهرة بليغة فى الكلام. إن السجع فى الأسلوب القرآنى أفضل مثال يحتذى به، إذ لم يعتمد القرآن الكريم السجعة من أجل أن يؤثر من خلالها على نفوس البشر، أو من وراء التعبير عن المعنى المقصود، بل كانت السجعة فى آياته مستقرة فى قرارها، مطمئنة فى موضعها، غير قلقة ولا نافرة، يتعلق معناها بمعنى الآية الكريمة كلها، تعلقاً تاماً. حيث لا يمكن استبدالها بكلمة أخرى غيرها، فروعة السجعة فى القرآن الكريم، وإحكامها وتنسيقها معجزة فى ذاتها» (*جولد تسهر*، اجنتس، مذاهب الاسلامى: ٣٧٤).

فائدة السجع

إنّ الكلام الموزون ذا النغم الموسيقى يثير انتباهاً عجيباً وإعجاباً فائقاً لدى البشر، وذلک لما فيه من توقع لمقاطع خاصة تنسجم مع ما يسمع من مقاطع لتتكون منها جميعاً تلک السلسلة التى تتردد فى أواخر الكتل الصوتية (الحسناوى، ١٩٨٦: ١٧٦)؛ يعد السجع جزءً لا يتجزأ من فنية الإيقاع والموسيقى، فله فى النفوس تأثير شديد وعلى الأسماع وقع ورنين. حيث يستخف القلوب ويستهوى الألباب ويحدث فى السامعين نشوة وأريحية (الخفاجى، ١٩٧٣: ١٢٤).

فالمحطات والكتل الصوتية التى يجمعها السجع تخلق فى الكلام نوعاً من التـوازن الموسـيقى والتناسب الايقاعى اللذين يقويان الوحدة ويولدان اللذة والتمتع بالكلام، فهذه النغمات والإيقاعـات التى يوجدها السجع تساعد فى إيصال المفاهيم الى المتلقـى، لأن النغمـات هـذه ترافـق وتلائـم المعانى عادة، حسب الدلالات الصوتية المتناسبة التى تحملها («دراسة موجزة فى موسيقى الخطبة الغرّاء للامام على (ع)»، مرتضى قائمى، مجلة *آفاق الحضارة الاسلامية*، العدد ۲۳، ص ۵۲۸).

إذن، فإن السجع يبهر بموسيقاه السمع، ويستولى على الوجدان بأنغامه، وألحانه، فهـو السـحر الحلال الذى جمع بين مزايا الشعر والنثر على السواء.

إنَّ القرآن الكريم نزل فى أمة أمية تسمع أكثر مما تكتب، على هذا لم يهمل فطرة العرب، فلم يكن غريباً أن يهتم نص كتابها بالصورة الصوتية المسموعة (الحسناوى، ۱۹۸٦: ۱۷۷)، إضافة الى عنايته البالغة بالمعنى الدقيق والأسلوب الفذ، فلذا اصطنع فنوناً من الأساليب جريـاً وراء منهجـه الأصيل فى مخاطبة العقول والقلوب، فمن بين هذه الفنون والأساليب سخّر السجعَ واتخذه وسيلة للتأثير على الاسماع والنفوس. غير أنه لم يفعل ذلـک للانسـجام الموسـيقى وحـده (الزوبعـى، ۱۹۹٦: *من أساليب التعبير القرآنى*، ۱۹۵)، بل لمراعاة ما يقتضيه التعبير والمعنى كذلک.

يقول شيخ بكرى أمين: «إنّ الفاصلة أو السجع، ترد وهى تحمـل شـحنتين فـى آن واحـد شحنة من الوقع الموسيقى وشحنة من المعنى المتمم للآية، وهذه الشحنة الثانيـة تتجلـى بـارزة عند إمعان النظر فى الآية وما حملت من الأفكار والمعانى» (أمين، ۱۹۸۰: ۲۰۳).

السجع يعكس الطلاقة الأدبية، فهذه الطلاقة هى التى تعكس تنوعاً عجيباً فى إيقـاع القـرآن، وهذا التنوع يختلف فى السور بالقياس إلى الأسجاع القصيرة والطويلة والمتوسطة، وبتنوعها فـى أحرف الروىّ، وهو أشبه باختلاف بحور الشعر فى الديوان الواحد (سيد قطب، ۱۹۵٦: ۹۰– ۹۱)، فمن المواضع التى نلاحظ فيها هذا التنوع ما جاء فى سورة «مريم»: فالسورة تبدأ بقصة «زكريا» و «يحيى» وتليها قصة «مريم» و «عيسى» وتسير الفقرات هكذا: «ذِكْرُ رحمة ربّکَ عَبْدهُ **زكريا**، إذ نادى ربّهُ نداءً **خفياً**، قالَ: ربِّ إنى وَهَنَ العظمُ منىّ واشتعل الرأسُ شيباً ولمَ أكنْ بدُعائک ربِّ **شقياً**» (مريم: ۲ – ٤).

إلى أن تنتهى القصتان على روىّ واحد، وفجأة يتغير هذا النسق بعـد آخـر فقـرة فـى قصـة «عيسى»، على النحو التالى: قال: «إنّى عبدُ الله آتانى الكتابَ وجعلنى **نبيـاً**، وجعلنى مُباركاً أيْنَما كُنتُ وأوْصَانى بالصَلاة والزكَاة ما دمتُ **حياً**، وبراً بوالِدَتى، ولَمْ يَجْعلْنى جباراً شقيا، والسلامُ علـىَّ يومَ وُلدتُ ويومَ أموتُ ويومَ أَبعثُ **حياً**، ذلک عيسى ابنُ مريمْ قولَ الحقِّ الذى فيه يَمْتَرون، ماكان لله أنْ يَتَخِذَ منْ وَلَدٍ سبحانَه، إذا قَضَى أمْراً، فإنّما يقولُ لَهُ: كُنْ فيكونُ» (مريم: ۳۰– ۳۵).

هكذا تتغير الفقرات وتطول مع التغير فى إيقاعها، كأن الله تعالى فى هذه الآيات الأخيرة يصدر حكماً بعد نهاية القصة، ولهجة الحكم تقتضى أسلوباً موسيقياً غير أسلوب العرض القصصى وتقتضى إيقاعاً قوياً رصيناً، بدل إيقاع القصة الرخى المسترسل، وكأنما لهذا السبب كان التغير (سيد قطب، ١٩٥٦: ٩١ – ٩٢).

كذلک نلاحظ فى سورة «النازعات» أسلوبين موسيقيين وإيقاعين ينسجمان مع جوّين فيها تمام الانسجام نتيجة تنوع الفقرات فضلاً عن الفواصل والأسجاع.

أولهما: يظهر فى هذه المقطوعة، السريعة الحركة، القصيرة الموجة، القوية المبنى تنسجم مع جوّ مكهرب، سريع البنى شديد الارتجاف على النحو التالى:

والنازعات غرقاً، والناشطات **نشطاً**، والسابحات **سبحاً** (النازعات: ١–٣).

وثانيهما: يظهر فى هذه المقطوعة الوانية الحركة، الرخية الموجة، المتوسطة الطول، ينسجم مع الجو القصصى الذى يلى مباشرة من السورة (سيد قطب، ١٩٥٦: ٩٣– ٩٤) على النحو التالى: "هلْ أتاکَ حديث موسى، إذ ناداه ربّه بالواد المقدس طوى، اذهبْ إلى فرعَونَ إنّه **طغى**" (النازعات: ١٥ –١٧).

فهذه المواضع والمواضع الكثيرة الأخرى فى القرآن تدل على أنّ فى القرآن إيقاعاً موسيقياً متعدد الأنواع، يتناسق مع الجو ويؤدى وظيفة أساسية فى البيان ولا يفصل النظام الموسيقى عن مجال الدلالات والمعانى (سيد قطب، ١٩٥٦: ١٥١)، فلذا نشاهد أن قدراً عظيماً من الآيات القرآنية موزونة موسيقية متناسبة متكافئة ومرتبطة تمام الارتباط بمعانيها، لأن القرآن كتاب دعوة قبل أىّ اعتبار آخر، وأن كنوزه المعرفية والشكلية ما كانت إلا خدمة لغرضٍ أساسيٍ طالما نادى به.

أسباب السجع

إنَّ القرآن لا يُعنى بالسجع (الفاصلة) على حساب المعنى ولا على حساب مقتضى الحال، بل هو يحسب لكل ذلک حسابه، فالقرآن يختار السجع مراعياً فيه المعنى والسياق والجرس، ويراعى فيه خواتم الآية، وجوّ السورة، وكل الأمور التعبيرية والفنية فيها، بل يراعى فيه إلى جانب ذلک كله، عموم التعبير القرآنى. فمن المعلوم والمؤكد، أنّ القرآن اختارالسجع فى السور لأسباب مختلفة، فلم يأتِ به اعتباطاً، بل يهدف من ورائه تحقيق غرض أو سبب معين من بين الأسباب المتعددة (الزوبعى، ١٩٩٦: ٣٨٦).

فبعض العلماء القدامى والمحدثين تناولوا أسباب السجع فى دراساتهم القرآنية واستخرجوا هذه الأحكام والأسباب موضحين لها أمثلة من كتاب الله، فمن بين هذه الأسباب يمكننا الإشارة الى:

ـ تأخیر ما أصله التقدیم کقوله تعالی: «فأوجَسَ فی نَفْسه خیفة موسـی» (طـه: ٦٧)، أصـل الکلام أن یتصل الفعل بفاعله، ویؤخر المفعول، ولکن أخر الفاعل، وهو «موسی»، لأجـل رعایـة السجع أو الفاصلة. ونحو: «ولقد جاء آل فرعون النُذرُ» (القمر: ٤١) فأخر الفاعل لأجـل السـجع. ونحو: «ولم یکنْ له کفواً أحد» (الاخلاص: ٤) حیث قُدّم خبر کان علـی إسـمها، وأُخـر الاسـم مراعاةً للسجع، وتقریراً لنفی التشبیه والقطع به. وقدّم سبحانه له وهو غیر مستقر لأن سـیاق هـذا الکلام لنفی الکُفء من ذات الباری، وهذا المعنی مرکزه هذا الظرف (الطبرسی، ١٩٩٢: ٢/ ٧٩٩). ومنه أیضاً: «إیاک نعبدُ وإیاک نستعین» (الفاتحة: ٥) قُـدّم إیـاک فـی موضـعین علـی عـاملین للاختصاص. ثم أُخرت الاستعانة عن العبادة فی الآیة الکریمة وهی قبل العبـادة، فإنمـا أُخـرت لأجل توافق نهایة الفقرات (الزرکشی، ١٩٩٠: ١٥٩). کذلک، قوله تعـالی : «لنُریـکَ مـنْ آیاتنـا الکُبری» (طه: ٢٣). إذا أُعربت الکُبری مفعول «نُری» الثانی، فأُخر لأجل توافق الأسجاع، ویجوز أن یکون «الکبری» صفة محذوف وهو المفعول الثانی، والتقـدیر: «لنُریـکَ الآیـة الکبـری مـن آیاتنا» (الطبرسی، ١٩٨٦: ٧–٨/ ١٤).

ـ تقدیم ما هو متأخر فی الزمان (السیوطی، ١٩٨٨: ١/ ٢٧)، نحو: «فلله الآخـرةُ والأولـی» (النجم: ٢٥). فعدل البیان القرآنی عما هو مألوف، من تقدیم الأولی علی الآخرة. فقُدمت الآخـرة علی الأولی لمراعاة الفاصلة. کذلک یمکن القول إنّ القصد من التقدیم لیس لأجل رعایة الفاصلة فحسب، وإنما اقتضی المعنی فی سیاق البشری والوعید، إذ الآخرةُ خیر وأبقی وعذابها أکبر وأشد وأخزی (عائشة عبدالرحمن، ١٩٨٤: ٢٧٧–٢٧٨).

ـ مخالفة القیاس ولها أسباب متنوعة، منها:

حذف یاء الفعل غیر المجزوم نحو: «واللیلِ إذا یسر» (الفجر: ٤).[٩]

حذف یاء المنقوص المعرّف نحو: «الکبیر المتعال» (الرعد: ١٠)، یوم التناد (المؤمن: ٣٢).[١٠]

صرف ما لا ینصرف نحو: «قواریرا، قواریرا».

تغییر بنیة الکلمة (السیوطی، ١٩٨٨: ٣٢). نحو: «وطور سینین» (التین: ٢).

والأصل: طور سیناء. وسینین وسیناء واحد. وقیل إن سینین معناه المبارک الحسـن. وکأنـه قیـل جبل الخیر الکثیر، أو معناه کثیر النبات والشجر (الشیخ الطبرسی، ١٩٨٦: ٩–١٠/ ٧٧٥).

ـ حذف المفعول، نحو: «والضحی، واللیلِ إذا سجی، ما ودّعکَ ربُّک وما قلی» (الضـحی: ١، ٢، ٣) حذف المفعول هنا إذ کان الأصل فیه «قلاکَ» لمراعاة الأسجاع، مع دلالة السـیاق علیـه، فتقتضیه حساسیة مرهفة، بالغة الدقة واللطف، فیتحاشی خطابه تعالی ورسوله بصریح القول «وما قلاکَ»، لما فی القلی من حس الطرد والإبعاد وشدة البغض، فالقرآن لا یریـد أن یمـسّ خـاطر

النبی وجاء بتعبير «قلی»، لإيناسه، وهذا نوع من الأدب القرآنی فی التعامل مع النبی (عائشة عبدالرحمن، ١٩٨٤: ٢٦٩).

ـ حذف الفاعل ونيابة المفعول عنه، نحو: «وما لأحد عنده من نعمة تجزی» (الليل: ١٩).

ـ حذف ياء الإضافة (السيوطی، ١٩٨٨: ٢٧ – ٢٩)، نحو: «فكيفَ كان عذابی ونذر» (القمر: ١٨). «فكيف كانَ عقاب» (الرعد: ٣٢).

● الاستغناء بصيغة عن أخری:

ـ الاستغناء بالإفراد عن التثنية، نحو: «فلا يخرّجنكما من الجَنة فتشقی» (طه: ١١٧). يقول الزمخشری: «إنما أُسند الی آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد إشراكهما فی الخروج؛ لأن فی ضمن شقاء الرجل وهو قيّم أهله وأميرهم، شقاءهم كما أن فی ضمن سعادته سعادتهم، فاختصر الكلام إليه دونه مع المحافظة علی الفاصلة» (الزمخشری، ١٤١٦: ٣/ ٩١، ٩٢).

ـ الاستغناء بالإفراد عن الجمع (الزركشی، ١٩٩٠: ١٥٩). نحو: «واجعلنا للمتقين إماماً» (الفرقان: ٧٤)، وأصله إئمة، اكتفی بالواحد لدلالته علی الجنس ولعدم اللبس (الزمخشری، ١٤١٦: ٣/ ٢٩٦). أو نحو: «إنّ المتقين فی جنات ونهر» (قمر: ٥٤). قال الفرّاء: الأصلُ «الأنهار» إنما وُحدَ لأنه رأس آية. فقابل بتوحيد رؤوس الآية (الفراء، ١٩٨٣: ٣/ ١١١). وقال الآخرون إن «الانهار فی آيات كثيرة جاءت فی وصف الجنات مع «من تحتها» لا مع الحرف «فی»، ونهر بفتح الهاء «السعة» ويكون معنی الآية الكريمة: «إن المتقين فی جناتٍ وسعة. والسعة علی التنكير فی قول الله تجعل نعيم المتقين فی الجنات غير محدودة» (الحسناوی، ١٩٨٦: ١١٠).

ـ الاستغناء بالتثنية عن الإفراد، نحو: ولمن خاف مقام ربّه جنتان. قال الفراء : هذا باب مذهب العرب فی تثنية البقعة الواحدة وجمعها كقوله: «ودار لها بالرقمتين» وثناهما لأجل السجع رعاية للتی قبلها وبعدها علی هذا الوزن (عائشة عبدالرحمن، ١٩٨٤: ٢٧٤) أو ربما «جنتان» خطاب للثقلين. فكأنه قيل لكل خائفين مثلكما جنتان. جنة للخائف الإنسی، وجنة للخائف الجنی، ويجوز أن يقال جنة لفعل الطاعات وجنة لترک المعاصی (الزمخشری، ١٤١٦: ٤/ ٤٥٢).

ـ الاستغناء بالجمع عن الإفراد، نحو: «لا بيعٌ فيه ولا خلال» (ابراهيم: ٣١). أی ولا خُلة فجمع مراعاة للفاصلة.

● العدول عن صيغة الماضی الی صيغة الاستقبال، نحو: «ففريقاً كذّبتم وفريقاً تقتلون» والأصل: قتلتم. ولم يقلْ: «قتلتم». لأنه اريد الحال الماضية، فأُريد استحضاره فی النفوس وتصويره فی القلوب (الطبرسی، ١٩٩٢: ١/ ٦١).

● الإيثار:

ـ إيثار أغرب اللفظين، نحو: «قسمةٌ ضيزى» (النجم: ٢٢)[١١] فضيزى بمعنى جائرة. وهى من أغرب الألفاظ، فجاءت الكلمة لتوافق الأسجاع.

ـ إيثار أحد اللفظين على الآخر، نحو: «ألهاكُمْ التكاثُر، حتى زُرْتُمْ المقابر» (التكاثر: ١-٢). أنّ المقابر أُثرت على القبور، للمشاكلة اللفظية بينهما، والانسجام والايقاع، منسقان فيهما. وراء ذلک ملحظٌ بيانيٌ آخر اقتضاه المعنى، فالمقابر جمع المقبرة وهى مجتمع القبور واستعمالها هنا هو الملائم معنوياً لهذا التكاثر، دلالة على مصير ما يتكالب عليه المتكاثرون فى حطام الدنيا هناک، حيث مجتمع الموتى محتشد الرمم على اختلافها وهذه الدلالة من السعة والعموم والشمول لا يمكن أن يقوم بها لفظ القبور، فبقدر ما بين قبر ومقبرة من تفاوت، يتجلى البيان القرآنى فى إيثار المقابر على القبور (عائشة عبدالرحمن، ١٩٨٤: ٢٧٥).

● زيادة هاء السكت على ياء الكلمة أو ياء المتكلم (السيوطى، ١٩٨٨: ٣١)، نحو: «وأما من ثَقُلتْ موازينهُ، فهو فى عيشة راضية، وأما مَنْ خفتْ موازينهُ، فأمُه هاوية، وما أدريک ماهيه، نارٌ حامية» (القارعة: ٦-١١) أو نحو: «ماليه» (الحاقة: ٢٨).

● وقوع شيء محل شيءٍ آخر:

ـ وقوع الفاعل موقع المفعول، نحو: «عيشة راضية». أى مرضية.

ـ وقوع المفعول موقع الفاعل، نحو: «حجاباً مستوراً» أى ساترا.

ـ وقوع الظاهر موقع المضمر، نحو: «الذين يُمسِكُونَ بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر **المُصلحين**» (الأعراف: ١٧٠)، أى أجرهم.

ـ إيقاع حرفٍ مكان غيره، نحو: «بأن ربّک أوحى لها» (الزلزلة: ٥) والأصل إليها. فعدّى أوحى باللام وإن كان المشهور تعديتها بإلى (السيوطى، ١٩٨٨: ٣٠). غير أن عائشة عبدالرحمن تقول: إذا كان الموحى إليه من الأحياء فيتعدى بـ إلى. «أما حين يكون الموحى له جماداً فالفعل يتعدى باللام، فاللام هنا متعينة» (عائشة عبدالرحمن، ١٩٨٤: ٢٧٧).

إنّ المتتبع للسجع القرآنى، يجد أن هناک أسباباً أخرى عديدة وكثيرة تستحق الذكر، لكن مجالنا الضيق هنا لا يسمح ذكرها كلها وتحديدها.

النتيجة

رغم ما تمتعت به اللغة العربية من فصاحة وبلاغة، طالما اشتهرت بنماذجها وأساليبها الرفيعة، لكن

یبقی لأسلوب السجع الذی حمله القرآن فی آیاته، هو الأفصح والأبلغ، حین تمیز منذ وهلته الأولی بإعجازاته التی خطفت قلوب السامعین سریعاً.

فالقرآن الکریم تفضل بالسجع وأخرجه الی سطح بلاغته وموطن فصاحته فَعُدّ وجوده فی القرآن الکریم إعجازاً فی حد ذاته، یضاف الی معجزاته البیانیة الاخری، لعدم قدرة بلغاء العرب وفصحائحهم علی مضاهاته أو مجاراته أو الإتیان بمثله.

وهذا لیس معناه أن السجع کان یحمل الصفة الجمالیة فقط مثلما کان سائداً ومعروفاً بتلاعباته الفنیة والکلامیة اللفظیة، إنما کان یقصد من ورائه أهدافٌ أخری لیست اعتباطیة أو عشوائیة، بل کان السجع القرآنی سجعاً من ورائه خفایا وأسرار جعلت المهتمین والباحثین والمعنیین یتلذذون بدراسة السجع، لما حمله من آثار التشویق والإثارة لدی القارئ أو المستمع، إلی جانب أهدافه السامیة الأخری.

فالقرآن کان نموذجاً حیاً ومثالیاً للأسالیب الراقیة العالیة السامیة، فأفصح عنه السجع والأسالیب الرفیعة الأخری لتبرهن علی الإعجاز القرآنی الذی ما وصل إلیه أی أسلوب أو أیُّ کتاب لأیٍّ کان ومهما کان، فلهذا السبب الأساسی نجح السجع القرآنی فی کسب استحسان القرّاء والمتتبعین والباحثین للنتاجات الأدبیة التی جعلت من السجع ملازمة جادة، طالما أثبتت روعة الفن الأدبی والبلاغی فی قمتها وذروة مجدها البدیعی.

الهوامش

١. یری البعض أن السجع غیر مختص بالنثر، بل قد یکون فی النظم أیضاً، کقول أبی تمام حین یمدح أبا العباس نصر بن بسام:

تجلی رشدی وأثرت به یدی   وفاض به ثمدی وأوری به زندی

(المراغی، د.ت: ٣٣٨)

٢. هناک مصطلح آخر إن لم یکن متأخراً عنهما فی الظهور فهو «رؤوس الآیات» التی هی بدورها نهایات الآیات، فأول من سمّی السجع بـ «رؤوس الآیات»، کان الفرّاء، ثم تبعه الزّجاج فی ذلک.

٣. ومن الآیات الأخری التی استخدمت هذه المادة فیها یمکن الاستناد الی «کتابٍ فصّلناه» الأعراف ٥٥١١، و «آیاتٍ مفصلاتٍ» الأعراف، ١١٣٣٢٢.

٤. وقد سمّاه ابن قیم الجوزیة «المتطرّف» فی کتاب *الفوائد المشوّق الی علوم القرآن وعلم البیان*.

٥. تکون الثانیة والثالثة فیها أطول من الأولی.

٦. تكون الثانية فيها أقصر من الأولى.

٧. تكون الأولى والثانية فيها متساويتين، والثالثة زائدة عليهما.

٨. قد يكون السجع مبنياً على التغيير، فيجوزأن تتغير لفظة الفاصلة لتوافق أختها بما فى ذلك الإمالة. فقد يكون فى الفواصل ما هو من ذوات الياء، وما هو من ذوات الواو، فتمال التى هى من ذوات الواو وتكتب بالياء حملاً على ما هو من ذوات الياء، لأجل الموافقة نحو قوله تعالى: «والضحى والليل إذا سجى» اميلت والضحى وكتبت بالياء حملاً على ما هو من ذوات الياء لأجل الموافقة. وكذلك قوله تعالى: والشمس وضحيها، اميلت فيها ذوات الواو وكتبت بالياء حملاً على ماهى من ذوات الياء. فمن أمثلة ذلك كثير وأسبابه تختلف أيضاً. من ذلك حذف المفعول نحو قوله تعالى: «ما وَدّعک ربّک وما قلى» (الضحى: ٣) والأصل «وما قلاکَ»، حذفت الكاف لتوافق الفواصل. كذلک صرف ما لا ينصرف، كقوله تعالى: «وأكوابٍ كانت قواريرا، قواريرا من فضة قدّروها تقديراً»، (الانسان: ١٥-١٦). صرفه بعض القراء ليوافق فواصل السورة الكريمة.

٩. حذفت الياء فى يسرى، من دون علّة صرفية لأن القياس فيها إثبات الياء فى المضارع المرفوع.

١٠. وقد حذفت فيهما الياء والقياس بقاؤها بسبب تحليهما بالألف.

١١. كذلک الحطمة، فى لينبذن فى الحطمة. الهمزة ٤.

المصادر

القرآن الكريم.

ابن دريد، *الجمهرة.*

ابن منظور، الامام العلامة أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (٢٠٠٤ م). *لسان العرب*، بيروت: دار صادر.

أبو حاقة، د. أحمد (١٩٩٦ م). *البلاغة والتحليل الأدبى*، بيروت: دار العلم للملايين.

أحمد نحلة، محمود (١٩٨٩ م). *دراسات قرآنية فى جزء عمّ*، بيروت: دار العلوم العربية.

أمين، شيخ بكرى (١٩٨٠ م). *التعبير الفنى فى القرآن*، بيروت: دار الشروق.

بنت الشاطئ، عائشة عبدالرحمن (١٩٨٤ م). *الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق (دراسة قرآنية لغوية بيانية)*، القاهرة: دار المعارف.

الجندى، على (١٩٥١ م). *صور البديع*، فى جزءين، القاهرة: دار الفكر العربى.

الجوزية، ابن قيّم (١٣٢٧هـ). *كتاب الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان*، ط ١، مصر: مطبعة السادة.

جولد تسهر، العالم المستشرق إجنتس (١٩٩٢ م). *مذاهب التفسير الاسلامى*، ترجمة عبدالحليم النجار، ط ٥، بيروت: دار إقرأ.

الحسناوى، محمد (١٩٨٦ م). *الفاصلة فى القرآن*، المكتب الاسلامى، ط ٢، بيروت: دار عمار، عمان.

الخفاجى، عبدالمنعم (١٩٧٣ م). *الشعر الجاهلى*، بيروت: دار الكتب اللبنانى.

الخفاجى، ابن سنان (١٩٥٣م/ ١٣٧٢هـ). *سر الفصاحة*، حققه عبدالمتعال الصعيدى، مصر: مكتبة محمد صبيح.

الزرکشي، محمد بن عبدالله (١٩٩٠ م). *البرهان فی علوم القرآن*، حققه يوسف عبدالرحمن المرعشلی، الشيخ جمال حمدی الذهبی، و الشيخ ابراهيم عبدالله الکردی، الجزء الأول، بيروت: دار المعرفة.

الزمخشری، جارالله محمود بن عمر (١٤١٦هـ. ق). *الکشاف عن غوامض التنزيل وعيون الأقاويل*، بيروت: دار الکتب العربی.

الزوبعی، طالب محمد (١٩٩٦ م). *البيان والبديع لطلبة قسم اللغة العربية*، ناصر حلاوی، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

الزوبعی، طالب محمد (١٩٩٦ م). *من أساليب التعبير القرآنی (دراسة لغوية وأسلوبية فی ضوء النص القرآنی)*، ط ١، بيروت: دار النهضة العربية.

سلامه، شرف الدين حسين بن محمد الطيبی (١٩٨٧ م). التبيان فی علوم المعانی والبيان والبديع، حققه هادی عطية مطر الهلالی، لبنان: مکتبة النهضة العربية (عالم الکتب).

سيد قطب (١٩٥٦ م). *التصوير الفنی فی القرآن*، مصر: دار المعارف.

السيوطی، جلال الدين عبدالرحمن بن أبی بکر (١٣٧٠هـ). *الاتقان فی علوم القرآن*، ط ٣، مصر: مطبعة مصطفی البابی الحلبی.

السيوطی، أبوالفضل جلال‌الدين عبدالرحمن أبی بکر (١٩٨٨ م). *معترک الأقران فی إعجاز القرآن*، صححه أحمد شمس‌الدين، المجلد الأول، ط ١، بيروت: دار الکتب العلمية.

الطبرسی، علی بن الفضل بن الحسن (١٩٩٢ م). *جوامع الجامع فی تفسير القرآن المجيد*، ج ١-٢، ط ١، بيروت: دار الأضواء.

الطبرسی، الشيخ أبو علی الفضل بن الحسن (١٩٨٦ م). *مجمع البيان فی تفسير القرآن*، صححه السيد هاشم الرسولی المحلاتی، السيد فضل‌الله اليزدی الطباطبائی، ج ٧، ط ١، بيروت: دار المعرفة.

طهرانی، نادر نظام (١٣٨٠). «اللغة العربية وظاهرة السجع فی الجاهلية والاسلام»، *مجلة دانشکده ادبيات وعلوم انسانی دانشگاه تربيت معلم* (ويژه‌نامه زبان‌های خارجی)، السنة ٧، العدد ٣٣، طهران.

عباس، فضل حسن (١٩٩٨ م). *البلاغة وفنونها وأفنانها*، عمان ـ الأردن: دار الفرقان للنشر والتوزيع.

عبود، شلتاغ (١٩٩٢ م). *الإعجازالقرآنی أسلوباً ومضموناً*، بيروت: دار المرتضی.

الفراء، يحيی بن زياد (١٩٨٣ م). *معانی القرآن*، صححه أحمد يوسف نجاتی و محمد علی نجّار، ط ٣، لبنان: عالم الکتب.

المراغی، أحمد مصطفی (د.ت). *علوم البلاغة (البيان والمعانی والبديع)*، د.ط، بيروت: دار العلم.

نهيرات، أحمد (٢٠٠٩ م). «جمال القص القرآنی»، *آفاق الحضارة الاسلامية*، معهد العلوم الانسانية والدراسات الثقافية، العدد ٢٣، السنة ١٢، طهران.